

## القصص الموضوعية في العبرات؛ دراسة تحليلية

\* مجيد صالح بك

تاريخ الوصول: ٩٢/٧/٢٣

\*\* مينا عربي

تاريخ القبول: ٩٣/١/٢٧

\*\*\* نسيم عربي

### الملخص

يعد المنفلوطي من الكتاب المصريين في بداية القرن العشرين وكان أجلّ اهتمامه في كتاباته القضايا الاجتماعية والفكرية. ربما ينبغي أن نعدّه مفكراً قبل اعتباره أديباً حيث كانت مؤلفاته ولا تزال موضع اهتمام الأدباء والقراء وجل هذا الاعتناء ينصبّ على الناحية الفكرية والمضامين المطروقة في قصص هذا الأديب فأهمل الجانب الفني لها رغم اتصاف كتاباته بحسن الصياغة وجزالة النص وجمال التعبير؛ و لربما كان جذور هذا الإغفال في الرأي السائد بالنسبة لآثار هذا الأديب أنه لا تجمع فيها عناصر القصة. فحثنا الأمر على القيام بدراسة نقدية تحليلية لطرف من قصصه في كتابه «العبرات» فاخترنا القصص المؤلفة على يده حيث تمكّن من التعرف على أسلوبه وميزات عمله الفني. تتابع المقالة هذه باتباع المنهج التحليلي الوصفي دراسة نقدية تحليلية لهذه القصص كما تحاول الاستقصاء عن المنهج الذي اتبعه المنفلوطي في صياغة هذه القصص.

الكلمات الدلالية: المنفلوطي، العبرات، القصص الموضوعية، اليتيم، الحجاب، الهاوية.

msalehbk@gmail.com

mi\_arabi@yahoo.com

dr.nasimarabi@gmail.com

\* عضو هيئة التدريس بجامعة العلامة الطباطبائي.

\*\* طالبة الدكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها.

\*\*\* عضو هيئة التدريس بجامعة المذاهب الإسلامية.

## المقدمة

يعتبر القصة فن نثرى متميز، عبارة عن مجموعة من الأحداث تتناول حادثة وواقعة واحدة، أو عدة وقائع، تتعلق بشخصيات إنسانية منها وأخرى مختلفة -غير إنسانية. مادة القصص أو مواضيعه؛ متعددة ومتنوعة، وذلك بغية التسلية والمتعة، أو حتى الوعظ والإرشاد، أو شد الهمم، وكان العرب يستمد قصصهم ومواضيعهم من حياتهم، مواقفهم، نزالاتهم، وموروثهم الثقافي مما تناقل إليهم عبر الرواية من الأسلاف. ولكل قصة عنصر سائد يميزها، فكل قصة نقرأها قد تترك في النفس أثراً أو انطباعاً ما، قد ينتج عن الأحداث أو الشخصيات، أو عن فكرة ما... ذلك الانطباع هو العنصر السائد وهو المحرك في القصة، وهو لا يمكن تحديده بدقة. أما عناصر القصة هي الحكمة، والأحداث، والشخصية، والحوار، والزمان والمكان (انظر: بلوفاي محمد). وهناك أنواع مختلفة من القصة في ناحية الموضوع والأسلوب والمساحة، فهناك قصص اجتماعية وسياسية وقصص الحب والمغامرات، كما ثمة قصص واقعية ورومانسية ورمزية و...، وتنقسم القصة حسب مساحتها إلى الرواية، والقصة، والقصة القصيرة، والقصة القصيرة جداً.

أما قصص المنفلوطى التى اتخذناها موضع الدراسة فتندرج ضمن القصص القصيرة الواقعية التى تعتنى بالقضايا الفكرية الاجتماعية. اعتنى المنفلوطى بالجانب الفكرى فى مجتمعه وحاول من خلال كتاباته حث أبناء شعبه إلى الأخذ بتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية، وعدم الخضوع والاستسلام لما داهمتهم من الأفكار الغربية التى ظل المجتمع المصرى يواجهها فى نهايات القرن التاسع عشر بعد أن كان خاضعاً لحكم الأتراك لمدة طويلة؛ هذا من جانب ومن جانب آخر بذل هذا الكاتب جهوداً لتعديل الفكر الدينى لدى أبناء شعبه وتعريفهم على التراث الدينى البعيد عن العصبية، والذى يأمر بالعدالة الاجتماعية و ينهى عن ظلم الحكام وضميم الغنى للفقير البائس ويحث على السلوك الحسن والحب والتثقيف.

أما فى البحث عن الدراسات المرتبطة بموضوع المقالة هذه، وجدنا أطروحة جامعية تحت عنوان «ترجمه ونقد العبرات» من تأليف ليلا اسماعيلى، ثم مقالة «بدبيني منفلوطى» لجوانرودى، ومقالة «بدبيني و بازتاب آن در آثار مصطفى لطفى منفلوطى» من إعداد مظفر اكبرى مفاخر، و أطروحة أكبر سليمى تحت عنوان «مضامين اخلاقى و

اجتماعي در آثار منفلوطي»؛ كما استعنا في التعرف على الجانب الفكري للكاتب بمقالة «مصطفى لطفى المنفلوطي؛ الأديب الاشتراكي» من إعداد محمد شلبي، وكذلك «المنفلوطي؛ كاتباً سياسياً» لمحمد شلبي، غير أن هذه المصادر تركز على موضوعات غير ما عليه الآن ولايزودنا بما يعتدّ به من الآراء النقدية في مجال ممارسة فن الكتابة القصصية في هذا الكتاب فاستعنا بالله في خطوة أول خطوة فهو نعم العون. وقبل كل شيء ينبغي التعرف على حياة المنفلوطي الأدبية ضمن الموضوع التالي:

### حياته الأدبية

مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) أحد كتاب مصر الذين علت شهرتهم وعظم تأثيرهم في الربع الأول من القرن العشرين، وقد ظل طوال حياته الأدبية معروف المكانة شامخ الشخصية برغم ما وجه إلى أدبه من نقد وانتقاص، من جانب بعض الكتاب البارزين الذين عاصروه مثل الأساتذة طه حسين والمازني وغيرهم، وكان المنفلوطي يمثل إلى حد كبير أفكار عصره، ويصور في كتاباته مشاعره وكان من الكتاب الذين يتوخون الإصلاح جهدهم، ويحاولون تعرف العلل التي فتت في أعضاء أمتهم وقصرت بها عن نيل المراغب وتحقيق الآمال والمطالب، وكان يرمى بكتابه إلى السموم بالعواطف وتفجير ينباع الرحمة في القلوب، والحث على فعل الخير ويحاول بقلمه أن يكف عادية الفقر ويقلم أظفار الجهل، ويحنو على البائسين المعذبين والمصابين والمنكوبين، ويستدر لهم العطف ويلين لهم القلوب القاسية المتحجرة ويسترعى الأنظار إلى ما يعانون من هم وكرب، وما يتجرعون من غصص وآلام. وكان يصرح في كتاباته بأنه لا يهتمه أمر الخاصة ولا يحفل برضاهم ولا يبالي سخطهم، فهو يكتب ليصلح الفاسد ويقوم المعوج ويعالج العلة ويزيل البؤس ويحارب الأفكار الزائفة والعقائد الفاسدة.

### الدراسة التحليلية

#### الموضوع

قصة «اليتيم» تتحدث عن مصير شاب مصري يعيش في بيت مجاور لبيت كاتب القصة كما وصف لنا المشهد. فتى يتيم عشق ابنة عمه ولكن لم يصرح بهذا الحب إذ كان يرى فقره ما يمنعه من الزواج من ابنة العم الثرية، فتركها إثر طلب زوجة العم المتوفى

منه، ذلك دون أن يودع ابنة عمه ويكشف عن خوالج صدره لها. ثم أغرق نفسه فى الدراسة هروبا من ذكرياته الحلوة فى بيت عمه إلى أن أخبر بوفاة ابنة العم شوقا لزيارته وحرنا على فراق الحبيب. فإنها كانت تكنّ لابن عمها حبا دون أن تنبس به، فمات الشاب تبعا لسماع الخبر. وهكذا نجد أن القصة تركز على معالجة إحدى مشاكل المجتمع المصرى وكيف يحول الفقر دون سعادة الناس بل يسوقهم إلى الموت الحزين فى ربيع أعمارهم، وكيف يؤدى اليتيم إلى شقاء شاب موهوب دؤوب وأنه ليس هناك من يقوم بشأن الأيتام حيث يساعدهم فى حياة طيبة ويمهد لسعادتهم.

أما قصة «الحجاب» فتدور حول أفكار رجل متغرب قادم من اوربا يرى حجاب المرأة سدا دون حضارة المجتمع: «فأريت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى القديم الذى وقف سدا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرا طويلا» (المصدر نفسه: ٤٤)، كذلك تنقل إلينا القصة أفكارا دينية تشجع الحجاب صونا لكرامة المرأة وحفظا لنظام الأسرة يلقيها الكاتب بصفته صديقا للرجل المتغرب فيتحدث فى مجال الحجاب من موقف عالم دين يعرف زوايا رضوخ الشيطان إلى قلوب الناس فينذرهم إياها.

القصة مستمدة النواة من واقع المجتمع المصرى فى بداية القرن العشرين حيث عاشها المنفلوطى الكاتب، وعانى الظروف الجديدة الطارئة على المجتمع والتى كان يراها غير صالحة لأبناء شعبه فأبدى آراءه و بذل جهده فى إرشاد الأمة وتنبيهها لعواقب اتباع الثقافة الغربية فتندرج القصة ضمن القصص الكلاسيكية.

القصة الثالثة الموضوعية فى كتاب «العبرات» عنوانها «الهاوية» وهى قصة رجل زلت أقدامه على شفا حفرة هاوية، بمعاشرة شارب خمر اتخذه صديقا ليكون نديمه فى مجالس لهوه، فنزل مما كان عليه من الشرف والعزة بين الأهل وفى المجتمع وقد أدى به الخمر إلى الإغفال عن الأهل فانتهى الأمر إلى موت الزوجة وطفله الرضيعة التى قتلها بوطى صدرها وتشرد أولاده وتقييد نفسه مغلولا فى المارستان.

أما «العقاب» وهى القصة الموضوعية الأخيرة فى كتاب «العبرات» تختص بقضية الظلم الموجه إلى المظلوم من جانب الحاكم الظالم. استمد المنفلوطى نواة هذه القصة من خياله فهى حكاية رؤيا حلم به، ثم الحلم هذا له عدة مشاهد. المشهد الأول يصور ساحة محكمة يصدر فيها القاضى أحكاما ظالمة بشأن الذين جرؤوا إلى المحكمة بصفة المجرمين

وما هم بمجرمين في الحقيقة إذ سرق أحدهم لسد جوع أحفاده الجائعين الأيتام بعد أن حرمه الكاهن من التصدق عليه بأرغفة خبز؛ والأخر فتى قتل من تعرض لشرفه وعرضه والأخرى فتاة اتهموها بتهمة الزنا وأمر القاضى بقتل الجميع ففعلوه.

المشهد الثاني يقص علينا قصة إلقاء القبض على الشيخ المتهم بتهمة السرقة كيف اضطر إلى السرقة بعد أن يأس من التمتع بصدقة الكاهن، وكيف قتل مظلوما وهذه ما حكته للكاتب زوجته العجوز التي حضرت جنازته لتواريه تحت التراب. ثم تنتقل القصة إلى المشهد الثالث وذاك كسابقه قصة حضور أهل الميت على جنازته لدفنه بعد أن صلبوه على جذع النخل، وتركوه قتيلا غارقا في دمه يموت في سبيل الدفاع عن عرضه والمشهد الأخير يحكي لنا قصة الفتاة المرجومة كيف قتلت بريئة بتهمة الزنا.

### الشخصية

بطل القصة في قصة «اليتيم» فتى شاحب نحيل منقبض يدرس في أحد المعاهد يعاني الفقر واليتم حيث يصف نفسه: «أنا فلان بن فلان مات أبى منذ عهد بعيد، وتركنى في السادسة من عمري فقيرا معدما» (المنفلوطى: ١٦)، والملاحظ في هذا الوصف أن البطل لم يسم باسم خاص تركيزا على فقره ويطمه، وأنه لا يختلف أبناء البشر من كانوا إذا سجلوا في عداد الفقراء والأيتام فإن مصيرهم لا يختلف كثيرا عن هذا البطل حيث ينتهى أمرهم إلى الشقاء وربما إلى الموت الحزين.

إن الشخصيات في هذه القصة كلها ثابتة فلا نجد تغييرا فيها حيث لا يبذلون أى جهدا لتغيير الظروف إلى مصالحهم بل يخضعون للمصير، ولا يختلف ذلك من الشاب الفقير إلى الفتاة الثرية فكل منهما محبوس في سجن التقاليد التي لا تسمح لهما بالبحث بما في القلب. فنجد الشاب قد انهمر في الدراسة بدافع نسيان الماضى: «وأن أستعين على نسيان الماضى باجتناج موطنه ومظاهره فلزمت غرفتى ومدرستى أداول بينهما لأفارقهما» (المنفلوطى: ٢٠).

فلم يقرر في نفسه مثلا أن يجتهد في الدراسة أملاً في مستقبل أفضل بل اتخذ الدراسة وسيلة لنسيان الآلام. وعجيب أن الحب ساق كلا الفتيتين إلى الموت فهذا الحب كان مميتاً بدل أن يكون مولدا. كأن الكاتب لا يجد في ثقافة مجتمعه نهاية لقصة هذين

إلا الذى رسمه وهو بذلك يصور المجتمع المصرى جامدا طبقيا، لا سبيل فيه لرفع المستوى من طبقة إلى أخرى أعلى والمرأة يرسمها الكاتب محبوسة فى سجن من التقاليد القاسية التى لاتسمح لها بالحديث عن نفسها وعما يدور فى قلبها ولو لأمها. أما بالنسبة لشخصيات قصة «الحجاب» فهناك رجل متغرب بدوره مدافع عن اتباع القدوة الغربية فى الحياة، وهو من الشخصيات الرئيسية والذى نشاهد تطوره حيث يختلف فى نهايات القصة عما كان عليه فى بداياتها، وذلك بعد أن طرأ عليه حادث خلو زوجته بصديقه فأدرك مغزى كلام صديقه وصدقته. ثم هناك الصديق أو المؤلف الذى يلعب دور المرشد الدينى ويدافع عن الحجاب فى حدود أفكاره. كذلك هناك شخصية هامشية وهى زوجة الرجل المتغرب فإنها مهما كانت القضايا تدور حولها بصفتها امرأة شرقية تلتزم خدرها ولكن لا نجد لها حضورا واضحا فى القصة، ولا عجب فى ذلك فإن الرجال يقررون المصير لنساء هذا المجتمع الذى رسمه لنا المؤلف وصورة هذه الزوجة صورة امرأة حمقاء جامدة الفكرة متحجرة. وهى شخصية تتغير من امرأة ملتزمة إلى امرأة سافرة تكاد أن تكون عاهرة ثم يقضى الله لها بالفلاح فتعود إلى رشدها، ولكن كل هذه التغييرات ليس لها فيها دخل بل هى تابعة لتحولات أفكار الزوج ومن هذه الناحية فلا تغيير فى شخصيتها فإنها تبقى من البداية إلى النهاية فى صورة موجود تبعى ليس له إلا تطبيق أفكار الآخرين ولا فكرة له.

ومن الملاحظ فى هذه القصة أن الرجل المتغرب فى بداية الأمر لا يرى سبيل المرأة السافرة إلى الفضيحة والعار، إلا إذا كانت وضيعة لا صلة بينها وبين الشرف، وفى نهاية القصة عندما يجد زوجته وصديقه عثر عليهما فى مكان ريبة وفى حال غير صالحة يتحول من أساس ويوجه رأس سهام اللوم إلى نفسه ويرى نفسه السبب فيما حدث لزوجته إثر خلع الحجاب وهذا تحول فجائى لا ننتظره، لأنه كان يعتقد أن سبب عهارة المرأة نفسها وضعتها ثم يرجع عن هذا المعتقد الذى كان يبدو راسخا فيه ويتهم نفسه ويستغفر لذنبه. وفى قصة «الهاوية» فإن الشخصية الرئيسية هو الرجل الذى تدور القصة حوله وهو فى بداية الأمر، وقبل انقطاعه عن المؤلف - الذى يحكى القصة بصفته صديق الرجل الشقى - كان أبا رحيمًا وزوجا كريما ورجلا نبيلًا شريفا غيورا ضنينا بعرضه وشرفه ساذجا اجتمعت فيه خلال الخير. فأخرجته فى صورة من صور الكمال الإنسانى فى وجه إنسان ثم تحول

إلى أب قاس وزوج سليط يضرب الأولاد ويشتم الزوجة وينتهرها وشارب خمر مقامر مستهتر منقطع عن الأهل والأولاد والمنزل لا يحتشم ولا يتقى عارا ولا ماثما. أما بالنسبة لعنصر الشخصية في قصة «العقاب» فإنها ثابتة وغير فاعلة حيث لا مجال لها للتغيير والتحول في المشاهد التي رسمها الكاتب، وقصد بها الإشارة إلى الوضع المسيطر على العالم آنذاك حيث تفعل الأمم القاهرة في الدول الضعيفة ما تشاء.

### المشهد

تدور قصة «اليتيم» داخل المدينة وقريبا من بيت الكاتب مما يوحي بأن الفقر والغنى توأمان والبؤس والسعادة قريبان من بعض قرب الجيران. والزمان في القصة مستدير حيث يعود الكاتب بعد سرد قصة التقاء بالشباب المشرف على الموت، إلى رواية قصة الحب الماضي الذي وقع فيه الشاب من ابنة عمه. ثم عاد إلى الزمن الحاضر ثانياً فأكمل حكاية مصير الشاب الفقير فوجد فيها نوعاً من الاسترجاع. لقد أفاد الكاتب من ألوان فاتحة متألأة، للإشارة إلى السعادة والرخاء وألوان داكنة مظلمة للتلميح إلى البؤس والشقاء، لكن الغلبة للألوان الغامقة إذ الحديث عن البؤس الحاضر المقيم والسعادة الزاهقة البائدة.

أما الزمان في قصة «الحجاب» فخطى تسلسلي يبدأ بزمن في الماضي ويمتد إلى الزمن الحاضر والأحداث متتابعة.

تحدث قصة «الهاوية» في موطن المؤلف مصر وزمانها قريب من الحاضر؛ فإدمان الرجال وأحيانا النساء قضية كنا وما نزال نعالجها كمشكلة عظيمة تهدد كيان الأسرة وتعرض مستقبل الأولاد لأخطار جسيمة فيمكن اتصاف القصة بالشمولية، ثم ثبت أن دور المرأة هام في توجيه مصير الأسرة وإرشاد الأبناء.

أجواء هذه القصة وألوانها كلها داكن مظلم من البداية إلى النهاية، وإذا وجدنا ضوءاً فيعود هذا الضوء إلى عقد سابق، ولم يبق له اثر في الحاضر وذلك عند المواقف التي يتذكر المؤلف أو الزوجة ماضيها مع الشخصية الرئيسية. وكذلك يحدث كل الأحداث المرة المؤلمة في الليل المظلم الموحى بالهاوية.

وتحدث قصة «العقاب» فى ظلام الليل وهذا الظلام واللون الأسود المسيطر على فضاء القصة يزيد الشعور بالظلم، ويبعث مشاعر الغضب فى نفس الإنسان باختلاطه مع احمرار دماء المقتولين الأبرياء.

الزمان فى هذه القصة الكلاسيكية الواقعية والبعيدة عن الخيال تسلسلى خطى نجد فيها تتابع الأحداث واحدة تلو أخرى، وتبدأ من قصة ابتعاد الصديقين عن بعض وتنتهى برقود الصديق الشريف سابقا والمدمن حاليا فى المارستان وموت زوجته وطفلته وتشرذ أولاده.

الزمان والمكان فى القصة غير محددين فإن الكاتب نزل فى منامه مدينة لا يعرف اسمها ولا يعرف موقعها ولا يعرف فى أى عصر هو، وهذا يوحى بالشمولية خاصة أنه يصور الناس ناطقين بأنواع اللغات وظن أن الدنيا قد استحالت إلى المدينة: «كأنى هبطت مدينة كبرى لا علم لى باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذى يعيش أهلها فيه، فرأيت أجناسا من البشر .. ينطقون بأنواع من اللغات لاحصر لها، فخيّل إلىّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة..»(المصدر نفسه: ٩٦). ثم أكمل هذه الرؤية العالمية إلى الظلم والفساد بذكر تاريخ يوم استفاقتة من الرؤيا التى سردها وذلك يتزامن إعلان الحرب العالمية الأولى.

## الحوار

بنية الحوار فى قصة «اليتيم» على المونولوج فإن الشاب هو المتكلم وحده من بدايات القصة إلى نهاياتها، إلا فى بعض الفقرات التى تدور بينه وبين الكاتب حوار قصير وكذلك نجد فى بعض الفقرات حوار نفسى: «و قلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بدّ لى من المصير إليه»(المصدر نفسه: ١٤).

الحوار فى قصة «الحجاب» ديالوج لكنه أشبه إلى المونولوج لأن المؤلف أطال فى الإجابة على سؤال صديقه: «أتنكر وجود العفة بين الناس؟»(المصدر نفسه: ٤٥) فكأنه يلقي محاضرة فى مجال العفة والحجاب، وله فى قصة دور رئيسى وفاعل إذ ينقل المؤلف آراء جمّة فى مجال الحجاب والعفة بالإفادة من هذه الآلية؛ آلية الحوار الذى يشبه الخطاب لطول حديث المؤلف.



وفي قصة «العقاب» يدخل الكاتب بعد وصف المشاهد كلها في حوار نفسى حيث يدرس القضايا التي شاهدها في منامه وإنه بذلك يدخل في صراع داخلى بين واقع الحياة و بين الظروف المثالية ويهدف بذلك تقبيح الظلم والإنذار بالنسبة لنتائج الصمت مقابل الظالم.

### المنظور القصصى

«إن ما يرمى إليه النقاد من وراء مصطلح الرؤية السردية، كشف الطريقة التى تدرك بها الحكاية من قبل الراوى، وبعبارة تودوروف: «يعكس العلاقة بين ضمير الغائب (هو) فى القصة وبين ضمير المتكلم (أنا) فى الخطاب؛ أى العلاقة بين الشخصية الروائية وبين السارد» (زوزو، نقلا عن تزفتان تودوروف، "مقولات السرد الأدبى").

إن القصص الموضوعية فى كتاب العبرات تم سردها من الرؤية الداخلية فالراوى هو المشارك أو المصاحب لبطل القصة والشخصيات داخلها.

فضلا عن ذلك فلسرده ميزات أخرى فنجد فى قصة «اليتيم» لا يصف لنا مشاهد من حياة أحد مواطنيه، بحيث يصور لنا الأحداث ويسمعنا حوارهم فيجعلنا نتابع الحدث متزامنا مع وقوعه حتى نصل مع بطل القصة إلى نهايات أمره؛ بل يحكى ما حدث فى زمن لم يمض عليه إلا قليلاً ويبنى أسلوبه على حكاية الحدث من لسان بطل القصة إن صح التعبير عنه بالبطل ومن أسلوبه أنه بنفسه داخل القصة، ويؤدى دور سامع الأحداث والذي يذرف العبرات أسفا على ما فات وتأخذ على الفتى أنه ترك نفسه كالريشة فى مهب الحوادث، ولم يحزم أمره ويقاوم ولا يروقنا هذا اللون من ألوان الحب المستسلم الضارع والمستكين الخاضع.

وفى قصة «الهاوية» لا نجد للمؤلف وهو الذى يلعب كالعادة دور الصديق الراوى له، دورا أساسيا فلا يمثل دور المرشد كما فعل ذلك فى قصة «الحجاب»، بل يكون سامعا ومشاهدا للوقائع والأحداث، ويستغنى عن النصح الكثير والإرشاد المتتابع بذكر مصير هذا الرجل الشقى المدمن على الخمر كى يعتبر الآخرون.

## الصراع

إن الصراع فى قصة اليتيم دائر بين القدر والاختيار وبين الفقر والغنى، وبين السعادة والشقاوة، فنرى الشاب الفقير فى صراع مستمر مع ما رآه مقدرًا له بسبب يتمه وفقره فأصبح فاشلاً فى هذا الصراع، وترك الساحة ليستقر فى أحضان الموت ورأى مصيره المرّ نتيجة فقره ويتمه؛ ولكن يجد المتلقى بمراجعة قصة ابنة العم العائشة نعيم التروى والرفاهية أنها أيضا خطت خطأ ابن عمها إلى هوة القبر مما يجعل المتلقى يرى الذنب على عاتق فقر المجتمع العقيدى الذى يرى السعادة فى الغنى، ويرى الصالح الغنى المتنعم.

وفى قصة الحجاب نجد الصراع صراعا بين التقليد والتجدد، وبين الالتزام بالقيم الدينية الاجتماعية والأفكار الغربية المخالفة للقيم الاسلامية فالصراع خارجى. ولانجد فى القصة صراعا بالمعنى الحقيقى للكلمة فلا يستفيق الزوج من ضلاله إلا فى نهاية القصة، وبعد موت الزوجة والطفلة الرضيعة ولكن لا تؤدى به هذه الاستفاقة إلى تغيير فى سلوكه وتشجيعه لإعادة بناء الأسرة، بل إلى التقيد بالأغلال فى المارستان فالمؤلف يدع شخصية قصته يسقط فى هاوية الإدمان. ثم يأسف على ما فات ويشفق عليه: «فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء»(المصدر نفسه: ٨١). ولأنأخذ عليه ذلك لأنه رسم لوحة من واقع الحياة لدى بعض الناس الذى لا يمنعمهم شىء من الاستمرار فى سبيل الخطأ حتى يلاقون الموت، حيث لا سبيل إلى الخلاص، فيمكننا القول بأن الصراع فى هذه القصة يدور بين الخير والشر وبين الإنسان والظروف المحيطة به الداعية له إلى الشر والهلاك.

## الخيال

إن المنفلوطى يتخذ عادة مادة قصته من الواقع ويكتب قصته منطبقه على معايير القصة الواقعية، فلا نرى فى أعماله لونا للخيال ومع ذلك نجده فى قصة العقاب التى تندرج ضمن القصص الرومانسية استعان بقوة خياله، حيث توسع مدى خياله فى نهايات هذه القصة إذ نطق من لسان المريخ الهابط إلى الأرض الغاضب من مشاهدة ما حدث للأبرياء الثلاثة المقتولين ضيما وظلما وشكا قوة الظالم وضعف المظلوم، وقدرة الغنى

ومسكنة الفقير وخيانة الأمراء عهد الله وطمع القضاة وضمّن زعماء الدين بالنزر القليل على الفقراء وإعانة الناس للظالمين، ثم رأى مصير كل هذه إلى الفساد ودعا على الأرض - التي تضم أرجائها الظلم الجائر - بالخراب: «لتسقط العروش، ولتهدم المعابد، ولتتقوض المحاكم وليعم الخراب المدن والأمصار والسهول والأوعار والنجاد والأغوار ولتغرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والأخيار والأشرار والمرجمون والأبرياء «و ما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»(المنفلوطي: ١١٢).

### النظرة الكينونية لدى الكاتب

#### السعادة والشقاء

سبق الذكر أن نظرة المنفلوطي تتصف بالتشاؤم قبال الحياة إذ عاش ظروف التي أصيب بلده باستعمار الأتراك ثم الفرنسيين وبدا بريق السعادة له بعيدا عن المتناول، وهذا التشاؤم ما نجده واضحا في القصص الذي نحن بصددنا أيضا حيث نراه في قصة اليتيم ينظر إلى الحياة نظرة متشائمة؛ وكأنه يرى مصير الخير إلى العدم فكلما يتحدث عن الأحباب المتضلعين على الحب والكرم والبر والإحسان والعطف والحنان، سرعان ما يداهمنا بموتهم. فالأم والأب وهما مصدر الحب والشفقة على الأولاد ميتان من بداية الأمر في السنوات الأولى من حياة الشاب ولاعجب فإن عنوان القصة «اليتيم».

ثم يتوفى العم الذي كان يدعمه ويحميه وكان المآسى ملمة باليتيم وإذا كان ثمة ضوء أمل في الحياة فإنه انطفا قبل أن يفيد. وقمة يأس الكاتب أنه يظن سعادة اليتيم في نزوله إلى غياهب القبر بعد أن لم يتمكن منها في ضياء القصر: «وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر».

ونجد نفس المصير للخير في قصة «الهاوية» حيث يرى الكاتب المتشائم سبيل الحب والحنان والطهارة إلى الموت إذ نرى الزوجة الحنونة الصبورة تموت والطفلة البريئة تموت بعدها وما يبقى هو التشرد والجنون.

## العلم والعلماء

وهذا التشاؤم واضح المعالم فى نظرة الكاتب إلى العلم والعلماء أيضا نظرة متشائمة حيث يقول من لسان الشاب فى قصة «اليتيم»: «المدرسة فى هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة والعلم فى هذه الأمة مرتزق يرتزق منه المرتزقون، لا منحة يمنحها المحسنون» (المصدر نفسه: ٢١).

وكذلك نجد الكاتب يسيء الظن بالأطباء أيضا وهذا ما شاهدناه فى قصة أخرى له. إنه يذم الأطباء كلما يأتى الدور أن يتحدث عنهم وفى قصة الهاوية أيضا فىضربهم فيها بسياط الذم قائلا: «لم تجد طبيبا يتصدق عليها بعلاجها، لأن البلد الذى لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذى قتله، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق» (المصدر نفسه: ٨٠).

## العالم الغربى والثقافة الغربية

وبالنسبة للعالم الغربى والخلق الغربية فلا يرحب بها المنفلوطى ويرأها شرا أصاب أبناء شعبه، فنجد قصة «الحجاب» توحى بانطباع سلبى لدى الكاتب تجاه الغرب حيث يكتب: «ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، وذهب بقلب نقى طاهر يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر وعاد بقلب ملفف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها والنقمة على السماء وخالقها ... وعاد برأس كراس التمثال المثقّب لا يملؤها إلا الهواء المتردد» (المصدر نفسه: ٤٣).

وبالنسبة لرؤيته إلى موضوع الحجاب نجده يطلعنا على تناقض فى أفكاره حول هذه القضية، وذلك رغم ذوده عن الحجاب، فيدافع عن الحجاب حيناً ويرأه أساس العفة، ويرى جذور هذه العفة فى البله حيناً آخر: «لا أنكرها (يقصد العفة)، لأنى أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين، ولكنى أنكر وجودها عند الرجل القادر المختلّب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه» (المصدر نفسه: ٤٥).

## الرجل والمرأة

بالنسبة لنسبة حظ المرأة والرجل من العقل والإدراك، فيعتقد الكاتب أن الرجل أوفر عقلا من المرأة: «ليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها». وبشكل عام خارج نطاق هذا المكتوب يعتقد المنفلوطي أن حظ المرأة من العقل أقل من الرجل، فيرى أن من حكم الإنصاف والعدل أن يجعلوا عقاب الرجل فوق عقاب المرأة فيعلق على قوله هذا قائلا: «ولكنه لم يفعل لأن رجاله ظلمة جائرون ولأن نساء ساذجات يصدقن الرجال في أقوالهم» (حسيني: ٢٨٦).

و بشكل عام نجد من خلال مطالعة آراء الكاتب أنه يرى المرأة المصرية ضعيفة ساذجة لا تستطيع امتلاك نفسها إذا برزت للرجال، ويرى أن شؤون المرأة لا بد أن تكون بيد رجال أهلها. من جانب آخر يجب تثقيف الرجال وتعليمهم المنهج الصحيح في معاملة النساء حتى لا يتبرمن من الخضوع للرجال في جميع المجالات وإعطائهم الخيار في إدارة شؤونهن مهما كانت! والرجل عليه أن يرافق المرأة أينما ذهبت ليحميها حيال من يريد بها سوءا كما يراعى الشاة راعيها خوفا عليها من الذئب!

## الإدمان وأسبابه

ولايتخذ المؤلف المتمثل في شخصية الصديق ولا الزوجة ولا أحد آخر موقفا حاسما من ذلك الساقط في هاوية الإدمان لإخراجه من الورطة، وقصارى ردود أفعالهم إزاءه الإشفاق عليه وتقديم النصائح له والبكاء عليه وهذا ما يدلنا على رؤية المؤلف إزاء قضية الإدمان أنه من سقط في هذه الورطة. فمصيره لا محالة إلى الشقاء أو إلى الجنون ولا سبيل لإعاقته وإعادةه إلى الحياة الطبيعية والسبيل الوحيد الممكن للنجاة أن لا يدنو الإنسان من هوة الإدمان. فإن زلت قدماه عندها فلا أمل في النجاة كما قال الرجل ذلك: «وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها. وقد شربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولاشء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شء واحد، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم، وما دمت قد فعلت، فلا حيلة لي فيما قضى الله» (المصدر نفسه: ٧٨).

أو كما قالت الزوجة: «أعلم أن طريق الشر واحدة، فمن وقف على رأسها لا بدّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها» (المصدر نفسه: ٧٤).

### الظلم والعدالة

وقد تطرق الكاتب لجذور بعض الجنح وأسباب ارتكابها، فلربما ثبتت الجنحة ولكن اختفت الأسباب الممهدة لها خلف حجاب يجب رفعه للكشف عن الحقيقة ومن ثم تحقق العدالة في الأحكام التي تصدر في شأن المجرمين. فالأمثلة التي مثل بها كلها من ضروب هذه الجنح فالشيخ الهرم كان سارقا والشاب كان قاتلا ولكن أي سبب أدى بهما إلى ارتكاب جريمة السرقة أو القتل؟ لم يفتش القاضي ولا الحاكم عن هذه الأسباب فقضيا عليهما بالعقاب دون أن يكون عليهما ذنب غير الاضطرار والدفاع عن الشرف وهذا ما يذكرنا به الكاتب أن ننظر إلى ما وراء الحقائق، وندرس الجذور عسى أن تختلف رؤيتنا إلى القضايا من هذا المنظار وعسى أن يختلف المجرمون ويصبح من بدا مجرما بريئا ومن بدا بريئا مجرما.

أما بالنسبة للفتاة المرجومة بتهمة الزنا فمشهد محاكمتها ورجمها تطلعنا مرة أخرى على ضعفها ومكانتها الوضيعة في المجتمع المصري آنذاك، كيف يستطيع أحد أقرباءها أن يلعب بمصيرها وبحياتها بكل سهولة ويسيطر على مالها ويخيّر في تعيين زوجها دون النظر إلى رغباتها وآمالها ورضاها.

### الأسلوب والتقنيات

من مواصفات كتابات المنفلوطي الوصف الدقيق المطنب للمشاهد، فكأنها لوحة رسام أو مسرحية وحتى الأضواء موحية بالجو الخانق المسيطر على القصة حيث الأزقة والغرف مظلمة أو منارة بضوء ضئيل.

وبالنسبة لاستخدام تقنية الرمز لانجد في القصص المعنية في هذه الدراسة رموزا، بل هي من القصص الواقعية التي استمدت مغزاها من ساحة الواقع ومما يحدث في حياة الكثيرين ممن يعيشون على ظهر اليابسة فقراء بؤساء.

وقد أفاد الكاتب من تقنية الأنسنة حيث أنطق المريخ وجعله يهبط إلى الأرض ويغضب من ظلم الظالم ومسكنة المظلوم، ويبدو أن ما جعل الكاتب يختار المريخ من بين النجوم لونه الأحمر المتلائم مع احمرار دماء الشهداء والمتناسب مع الغضب الحاد «فإذا هو المريخ يتلهب ويضطرم كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين» (المصدر نفسه: ١٠١).

### نتيجة البحث

وبعد عرض هذه القصص للدراسة نستنتج الأمور التالية:

للمونولوج دور فاعل في قصص العبرات الموضوعية، حيث أفاد المنفلوطي منه أنه أتم الإفادة لنقل الأفكار إلى المخاطب، ويتسع مدى فاعلية الحوار في هذه القصص بحيث تصبح هذه القصص لاسيما في بعض فقراته أشبه إلى مقالات اجتماعية بدل أن تأخذنا معها في فضاء خيالي قصصي، ننطبع فيه بطواع فكرية لطيفة خفية تهدينا إلى دروس حياة عميقة. إن الكاتب يفضل أن يشير إلى هذه الدروس بأتم صراحة، بدل أن يلفها في أوراق الخيال الذهبية ويدعنا نفتح هداياه الفكرية بأنفسنا ويتم التلقى عند كل مخاطب حسب ميزاته الفكرية، فليس للمتلقى دور في تفسير النص بل تقتصر القصة في ولادتها الأولية الوحيدة، إذ أعطانا الكاتب فكرته بشكل واضح دون أن نجد في إدراكها صعوبة ولا أن نواجه فيها أي عقد بحاجة إلى الحل.

لظروف البيئة ونفسية المؤلف أثر كبير في قصص العبرات الموضوعية إذ أن الكاتب عاش مرحلة اجتياز التقليد إلى التجديد، وكان من أنصار تعديل التقاليد وضرورة الالتزام بها في الوقت نفسه ويرى المشكلة في سوء فهم الناس للتقاليد وابتعادهم عن حقيقتها ويعتقد أنهم لو عرفوها حق المعرفة والتزموا بها فيستغنون عن التجديد.

تتصف كتابة المنفلوطي بالإطناب، فهو عندما يصف شيئا أو يشرح أمرا يدقق فيه ويتعمق ولا يدع جزء منه إلا يعطى وصفا دقيقا عنه، وهذا ملاحظ في كل قصصه ولا فرق في ذلك بين الخيال والواقع فإنه يصور الأخيلة تصويرا دقيقا مطنبا، وذلك ما نشاهده في وصفه لهبوط نجمة المريخ في قصة «العقاب» كما يصور الواقع مثل تصويره لشدن السكرى في بيت الرجل المدمن على الخمر.

اللون المسيطر على فضاء كل هذه القصص هو الأسود، والقضايا معظمها يحدث في سواد الليل مما يوحي بانطواء الكاتب على الذات وتشاؤمه وهذا التشاؤم منه الخفى ومنه الجلى ومثله تشاؤمه بالنسبة للأطباء كما مضى ذكره.

الموضوع العام للقصص الموضوعية في كتاب «العبرات» هو دراسة بعض الظواهر الاجتماعية المكروهة، من اليتيم إلى الإدمان على الخمر والإغفال عن الأهل، إلى سفور النساء وإطفاء غيرة الرجال وهناك موضوع سياسى-اجتماعى يتطرق إليه الكاتب في قصة "العقاب" حيث يرسم لوحة من ظلم الأمير وقاضى المدينة ورجال دينها لأبناء الشعب الفقراء المضطهدين.

شخصيات قصص *المنفلوطى* هذه شخصيات ثابتة لا تتغير ولا تنبعث بدافع الوقوف في وجه ظلم البيئة فيثور، ويقوم بالإصلاح بل يقبل الضيم أو لا يجد سبيلا للخروج من سيطرة ظلم الظالم وجور الجائر، الوحيد الذى اختلفت بدايته عن نهايته ذاك الذى كان مدافع سفور المرأة ثم عاد عن معتقده إلا أنه مات إثر هذا التحول ولم يطق ثقل التغيير. المكان والزمان فى بعض هذه القصص محددان وفى بعضها غير محددان، إلا أننا نعرف بحضور المؤلف فى القصة بصفته أحد شخصيات القصة أنها تحدث فى بيئة مصر وفى الفترة التى عاشها الكاتب.

هذه القصص مطبوعة بطابع الكلاسيكية الواقعية غير أن القصة الأخيرة تختلف عن أخواتها، فهى أقرب إلى الرومانسية منه إلى الكلاسيكية.



## المصادر والمراجع

الزركلي الدمشقي، خيرالدين. ٢٠٠٢م، الأعلام، بيروت: دارالعلم للملأين.  
المنفلوطي، مصطفى لطفى. ١٩٩٧م. العبرات، بيروت: مكتبة المعارف.  
المنفلوطي، مصطفى لطفى. ١٩٢٥م، النظرات، مصر: المطبعة الرحمانية.

## المقالات

اسماعيلى، ليلا. «ترجمه و نقد العبرات»، مشكوة النور، أذر و دى ١٣٨١، شماره ٢٠.  
فنون النثر الأدبى فى العصر الجاهلى والإسلامى والأموى، ٢٠ أيار (مايو) ٢٠٠٩ بقلم بلوافى محمد  
[http://netct.in/more/255063\\_2/](http://netct.in/more/255063_2/)  
«مصطفى لطفى المنفلوطى والقضية المصرية» / المنفلوطى.. كاتبا سياسيا ؛ محمد شبلى؛ مجله  
الجديد « ١ أبريل ١٩٨٢ - العدد ٢٤٤؛  
<http://www.noormags.com/view/fa/ArticlePage/>  
حسينى، محمد باقر. «نقدى بر زن از نگاه منفلوطى و آل احمد»، ادب عربى، سال ٣، شماره ٣،  
زمستان ٩٠.